فتح المكسيك

(تابع ما قبلهُ)

ذكرنا في الجزء الماضي ما اصاب كورتس من التلسكاليين قبل ان اضطرّهم الى الهزيمة وما وقع في نفسهِ منهم. وفي اليوم التالي لمَّ شعث رجالهِ وحاول ان يسترضي التلسكاليين بكل واسطة ليخلو من شرهم ويستعين بهم على اهالي المكسيك فبعث اليهم اثنين من اعظم الشيوخ الذين اسرهم في اليوم السابق عارضًا عليهم الصلح وطالبًا منهم ان يسمحوا لهُ بالمرور في بلادهم لا غير. وخاف ان يغرّهم الغرور اذا هو ابدى الضعف فاختار شرذمة من نخبة فرسانهِ وسار بها ضاربًا في البلاد غازيًا ومخربًا وعاد بالغنائم والاسرى لكنهُ عامل الاسرى بالرفق واقنعهم انهُ اضطرّ ان يغزو بلادهم اضطرارًا لان حكومتهم بادأتهُ بالعدوان . ولما عاد الى معسكرهِ وجد الرسولين قد عادا اليهِ فقالا انهما التقيا بقائدها الذي هُزم بالامس ومعهُ خمسون الف مقاتل وهو متربص لكورتس ولا بدَّ من ان يوقع بهِ لان جمهورية تلسكالا عزمت عزمًا اكيدًا ان لا تدعهُ يمر في بلادها

فاسقط في يد الاسبانيين وخافوا خوفًا شديدًا وايقنوا بالهلكة فاعترفوا للكاهن على جاري عادة المسيحيين قبل الموت وتناولوا القربان مودعين الحياة

وعزم كورتس ان لا ينتظر هجوم التلسكاليين عليهِ بل يهجم هو عليهم لكي يبث الشجاعة في نفوس رجالهِ ويوقع الرعب في نفوس رجالهم . فجمع رجالهُ في الصباح وشدَّد عزائمهم واوصاهم ان يطعنوا التلسكاليين في وجوههم واوصى رجال المدافع والبنادق ان لا يكفوا عن اطلاق النيران وان يبقوا كلهم مجتمعين معًا حتى لا يتمكن العدو من اختراق صفوفهم

وكان التلسكاليون نازلين في سهل فسيح وقوادهم باخوذ الذهبية والحلل الريشية وسنان رماحهم وحرابهم من النحاس الصقيل ينعكس عنها نور الشمس فيبهر النظر وفي مقدمتهم ما لا يحصى من الاعلام والبنود وبينها علم اللقلق الابيض شعار القائد العام وفوقهُ علم النسر الذهبي شعار الجمهورية والرؤساء كلهم بالمضرّبات المحشوة قطنًا ممسكها اصبعان او ثلاث لكي تتيهم رشق السهام والاغنياء منهم لابسون فوقها دروعًا من الذهب او الفضة وفي ارجلهم احذية من الجلد اطرافها من الذهب وعلى اكتافهم اردية من ريش الطيور منسوجة على اشكال بديعة وعلى رؤوسهم خوذ تشبه رؤوس الضواري فوقها ريش يتمايل في الهواء وفي ايديهم تروس من

الخشب مصفحة بالجلد الصفيق او من القصب مضرّبة بالقطن عليها دهان صفيق وصور مختلفة حسب قبائلهم ومراتبهم

اما اسلحتهم فالمقلاع والقوس والسهم والحربة والمزراق وكانوا من امهر الناس برمي النبال يرمي الواحد منهم نبلتين او ثلاثاً في وقت واحد . وعندهم حراب مربوطة بحبال يرشقها الرامي ويبقى الحبل في يدهِ وكان معهم بدل السيوف عصي فيها قطع من الصوان الحاد قال واحد انهُ رأى رجلاً منهم ضرب بها فرساً فبرى رقبتهُ بريًا

ولما اقبل الاسبانيون عليهم صرخوا صراخ الحرب وبادروهم برشق النبال اما الاسبانيون فظلوا سائرين الى ان صاروا على مرمى الرصاص فوقفوا ونصبوا مدافعهم وبنادقهم وجعلوا يقذفون بها نار الهلاك فحصد التلسكاليون حصدًا . ودهش التلسكاليون في اول الامر ووقفوا مرتاعين من صوت البارود ودخانهِ ومن الفعل الذريع الذي كانت تنابلهُ تفعلهُ بهم ثم صرخوا صراخ الحرب وهجموا على الاسبانيين كالسيل الجارف ودفعوهم امامهم كما تدفع الريح العصافة . وناداهم كورتس يشجعهم ويحثهم على الثبات فضاع صوتهُ بين صرخات الهاجمين وايقن الاسبانيون بالهلاك سواء ثبتوا او هربوا ففضّلوا الثبات واعملوا سيوفهم ورماحهم في مقدمة التلسكاليين وبقيت المدافع والبنادق تحصد جناحيهم واتجه التلسكاليون كلهم نحو الاسبانيين فوقع فيهم التشويش لكثرة عددهم وصار بعضهم يتعثّر ببعض وانقضّ كورتس عليهم بفرسانهِ فزادهم اضطرابًا وتشويشًا . ومع مهارتهم في فن الحرب لم يكونوا يعرفون كيفية توزيع الجيش والترئيس والهجوم فرقًا فرقًا فما اشتركوا كلهم في الهجوم صدّت مقدمتهم فعل قليهم وساقتهم وصار اقل اضطراب يؤثر فيهم كلهم فاصابهم ما اصاب الفرس مع الاسكندر المكدوني

وبينما كان الاسبانيون يحاولون الثبات والدلائل كلها تدلُّ على ان التلسكاليين لا بدَّ ان يفنوهم عن آخرهم ولو قتل بدل الرجل منهم عشرة وقع خلاف بين قائد التلسكاليين وامير من الامراء الذين معهُ فرمى القائد الامير بالجبن ودعاهُ الامير الى المبارزة ولما لم يجبهُ الى طلبهِ خرج الامير برجاله وهم عشرة آلاف مقاتل واقنع اميرًا آخر ان يحذو حذوهُ . ورأى القائد ان نصف جنودهِ تركوهُ فضعفت عزيمتهُ ولكنهُ لم ينشل بل عاد ونظّم جنودهُ وبقي يساجل الاسبانيين اربع ساعات ولما وجد انهُ لم ينَل منهم قدر ما نالوا منهُ عاد عنهم مخذولاً واكتفى كورتس بذلك فلم يسر وراءهُ واسرع الى جمع قتلاهُ ودفنهم لئلاَّ يراهم التلسكاليون فيعلموا ان الاسبانيين يموتون مثل غيرهم من البشر

وجُرح كثيرون من الاسبانيين لكنهم سرُّوا بفوزهم فطابت نفوسهم وايقنوا انهم وان

كانوا حنكة فلن يقف امامهم احد من اهالي تلك البلاد ما دام عندهم مدافع وبنادق وخيول

ورأى كورتس ان قد حانت الفرصة الآن لعرض الصلح على التلسكاليين بعد ان قهر جنودهم فاوفد اليهم بعض الشيوخ في هذا الشان فاجتمع مجلس شوراهم وتشاوروا في الامر وكانت حجة الراغبين في الصلح ما بان لهم من شهامة كورتس في معاملة الاسرى فقالوا هذا رجل نحسن مصادقتهُ لكن حجة الراغبين في الحرب كادت تقوى على حجتهم واخيرًا استدعوا الكهنة وسألوهم عمَّا اذا كان الاسبانيون بشرًا او آلهة. فتشاور الكهنة في ما بينهم ثم قالوا ان الاسبانيين ليسوا آلهة ولكنهم من اولاد الشمس وقوتهم من قوتها فاذا غابت الشمس عنهم ضعف امرهم وسهل تبييتهم . والمظنون ان هؤلاء الكهنة لم يقولوا هذا القول عن سخافة بل عن احتيال لانهم يعلمون فائدة التبييت اي الهجوم على العدو ليلاً . وقرَّ القرار على تبييت الاسبانيين وكتم الخبر لكي لا يأخذوا اهبتهم الاَّ ان الليلة كانت مقمرة وكان الاسبانيون على تمام التيقظ ينامون باسلحتهم وخيولهم مربوطة بجانبهم فنهضوا حالاً وهجموا على العدو وهو آت عليهم خلسةً وكان ظلمة الليل وضعف نور القمر كثَّرا عدد الاسبانيين وكبَّرا اجسام خيولهم فرآهم التلسكاليون اكثر ممَّا كانوا عددًا واكبر اجسامًا فرشقوا ما يدهم من النبال وارتكنوا الى الفرار وتبعهم فرسان الاسبانيين واوقعوا بهم وذبحوا منهم خلقًا كثيرًا

وعاد كورتس في الصباح فارسل الى عاصمة التلسكاليين يدعوهم الى الصلح واعدًا اياهم انهُ ينسى كل ما مضى ويتخذهم اصدقاء واذا لم يجيبوهُ الى طلبهِ دخل عاصمتهم عنوةً وخرَّب كل بيت فيها وقتل كل نفس بحد السيف . وامر الرسل ان يحملوا كتابهُ في اليد الواحدة وسهمًا في اليد الاخرى فرحَّب بهم نوَّاب التلسكاليين هذه المرَّة لانهم اقتنعوا الآن ان لا قبَل لهم بمناوأة الاسبانيين واختاروا اربعة من امرائهم وارسلوهم الى كورتس ليقولوا لهُ انهم يرحبون بهِ في عاصمتهم ويسمحون لهُ بالمرور في بلادهم ولكي يعتذروا لهُ عمَّا مضى ويعاهدوهُ عهد الصداقة وطلبوا منهم ان يمروا اولاً بقائد الجيش ويخبروهُ بما قرَّ عليهِ رأي مجلس الشورى فلما قابلوهُ واخبروهُ بامرهم آثر لاجلهِ ابى ان يسمع لهم قائلاً ان هؤلاء الناس بشر مثلنا ولابدَّ لنا من ان نقهرهم اخيرًا

ولما ارسل كورتس الرسل الى التلسكاليين سار بنفر من رجالهِ يغزو القرى المجاورة فاذا قابلهُ اهل قرية بالمسالمة تركهم وشانهم واذا قاوموهُ اوقع بهم ونهب ما عندهم وعاد في المساء فرأى الفتنة قد استحكمت من رجالهِ فاتوهُ وكلموهُ لا كما يكلم المرؤوس رئيسهُ بل كما يكلم الصديق صديقهُ وشكوا اليهِ ما يلاقونهُ من الشدَّة وقالوا انهُ لم يبقَ احد منا الاَّ اتخنتهُ الجراح

ونحن عائشون عيشة نحسد فيها البهائم لان البهائم تتعب في النهار وتستريح في الليل واما نحن فنتعب نهارًا وليلاً تعبًا يفوق الطاقة وان كنا صقنا ذرعًا بهذه الجمهورية الصغيرة فكيف نرجو ان نتغلب على مملكة المكسيك الكبيرة

فقال لهم اني اعلم انكم تجشمتم من المشاق ما لم يتجشمهُ قبلكم اليونان والرومان ولذلك سيكون فوزكم امجد من فوزهم . ثم اخذ يطريهُ بمسالتهم واقدامهم وقال لهم لا تنسوا ان يد الله القدير معنا وهو الذي يحارب حروبنا والنصر منهُ يؤتيهِ من يشاء . وانهُ هو لم يحجم عما حمَّلهم اياهُ بل قاسمهم المشاق كلها وكان النصر حليفًا لهم دائمًا فاذا ارتدُّوا تخذولين الآن بعد ان قهروا عدوهم فالحجارة نفسها تهزأ بهم وتتهكم عليهم وتعيرهم الضعف والجبن . ورجوعهم لا ينجيهم من التلكاليين فانهم يجدون في اثرهم ويصطادونهم صيدًا كما يصطادون الوحوش ويقدمونهم ضحايا لاصنامهم . وينقلب عليهم الذين حالفوهم من التوتنك ارضاء للمكسيكيين ويجزون عليهم

فلم يقنعهم هذا الكلام بل قالوا ان واقعة اخرى مثل هذه تقضي عليهم وان وصل احد منهم الى بلاد المكسيك فيكون لكي يُذبح هناك . ولما ضاقت حجة كورتس استشهد بشعر لهُ وقع عظيم في نفوس الاسبانيين معناهُ ان الموت في القتال خير من حياة الذل فردَّد قولهُ الحضور وكأنهُ كان طلسمًا على نفوس الكثيرين منهم اما زعماؤهم فخرجوا يلعنون الساعة التي رافقوهُ فيها

وفي الصباح التالي اقبل على محلة الاسبانيين نفر من التلكاليين بالحلل البيضاء علامة السلم ومعهم شيء من الهدايا من الطعام والحلي وقالوا انهم آتون من قائد التلكاليين فانهُ ملَّ من الحرب ويود ان يصطلح مع كورتس وسيأتي بنفسهِ لهذه الغاية فسرَّ الاسبانيون بهذا الخبر الاَّ مرينا زوجة كورتس فانها اوجست خيفة من هؤلاء الرسل وقالت انهم جواسيس واطلعت كورتس على ما خامر نفسها فقبض على البعض منهم واستنطقهم على انفراد فثبت لهُ انهم من جواسيس القائد ارسلهم ليتجسَّس احوال الاسبانيين قبل الهجوم عليهم وعزم ان يجعلهم عبرةً لغيرهم فقطع ايديهم وارسلهم الى معسكر التلكاليين وقال لهم انهُ مستعد ان يفعل كذلك بكل واحد منهم سواء اتوهُ نهارًا او ليلاً فارتاع قائدهم من هذا المنظر وثار رجالهُ قائلين انهم لا يحاربون عدوًّا يعرف اسرارهم وما يخامر نفوسهم فسمح لوفود مجلس الشورى ان يمضوا الى كورتس ويكلموهُ في امر الصلح وبعضهم هو نفر من رجالهِ لابسين الاردية البيضاء والصفراء علامة السلم

وكان هذا القائد طويل القامة عريض المنكبين مجدول العضل كبير الراس مهيب الطلعة .

دخل على كورتس وسلَّم سلامهم العادي وهو لمس الارض باليد ورفعها الى الرأس وكان الثلثان بين يديهِ يوقدون الطيب في المباخر وتكلم فقال اني انا اقمت هذه الحرب وانا المسؤول عنها وقد فعلت ذلك لا لسابق عداوة بيني وبينكم بل لانني رأيتكم آتين مع انصار ملك المكسيك وهو عدونا فحسبت انكم ممالئون لهُ علينا فابى حبي لوطني ان يسمح لي بتركِكم تطأون بلادي وتعبثون باستقلالها وقد قهرتموني المرَّة بعد الاخرى وهذا يدلني على انكم الرجال الذين تقول تقاليدنا انهم سيأتون من المشرق ويتملكون البلاد . ثم ودَّ ان يعدلوا ولا يعبثوا بحرية تلك الجمهورية وقال انهُ آتٍ باسم اهل بلادهِ ليقدم طاعتهم للاسبانيين واكَّد انهم يجدونهم صادقين في السلم كما وجدوهم صادقين في الحرب

فسُرَّ كورتس من منظر هذا القائد واعجب بانفتهِ وشجاعتهِ لكنهُ لامهُ لانهُ لم يثق بكلامهِ من اول الامر وقال لهُ انكم ان تثبتم على وعدكم ولم تخفروا لنا ذمةً ولم تنكثوا عهدًا وجدتمونا من اصدق الاصدقاء

ثم قدَّم القائد لكورتس هديةً من الحلى الذهبية والثياب الريشية واعتذر عن قلتها وبخسها بفقر التلسكاليين وقال انهُ لم يقدمها الاَّ علامة لشكرهم واكرامهم فقبل كورتس اعتذارهُ وقال انها عندهُ خير من بيت مملوء ذهبًا

وبينما هم يتكلمون اتى وفود من قبل ملك المكسيك بهدايا نفيسة يحملها مئتان من الغلمان فيها ثلاثة آلاف اوقية من شذور الذهب والحلى الذهبية ومئات من الحلل المطرزة بالريش فانهُ كان يرقب سير كورتس في البلاد بعين الساهر الوجل وكانت رسلهُ تأتيهِ باخبارهِ يوميًّا حتى اذا دخل بلاد تلسكالا حمد الله قائلاً ان منيَّة الاسبانيين قادتهم الى تلك البلاد ثم لما بلغهُ انهم واقعوا التلسكاليين وقهروهم لم يبقَ ريب في نفسهِ انهم الغرباء الذين اتت التقاليد عنهم وانهم آتون لنزع الملك من يدهِ فاراد ان يبعدهم عنهُ بكل جهدهِ ولكنهُ ركب في ذلك متن الخاتلة وحاول ابعادهم بالواسطة التي تظهر ضعفهُ وتزيد رغبتهم في الذهاب اليهِ وهي الهدايا النفيسة من الذهب ولما اعرب وفودهُ عن رغبتهِ قالوا ان الملك يخشى ان تزوروا بلادهُ فينالكم مكروهٌ من رجالهِ لكثرتهم ولانهُ اذا ثارت ثائرتهم تعذر عليهِ فمعهم فقال كورتس نحن قادرون على حماية انفسنا ولا يستطيع احد ان يوقع بنا ضرًّا وما ذهابنا الى عاصمتهِ الاَّ طاعة لامر ملكنا الذي ارسلنا لهذه الغاية . فقال احد الوفود ان ملكنا يدفع الجزية الى ملككم اذا كان ذلك يرضيكم وبني بمراد ملككم من غير ان تزوروا عاصمتنا فزاد طمع كورتس بذلك وزادت جرأتهُ

وجَّ التلسكاليون على كورتس حتى مشى الى عاصمتهم وخرجت المدينة كلها لاستقباله رجالاً ونساء وهم يابسي الحلى والفخر الحلل كانهم في عيد من اعيادهم وزينوا بيوتهم باكاليل الازهار وقلائد الريحان. ودخل كورتس المدينة ومعهُ البعض من وفود المكسيك وكان قد صرف البعض الآخر ليعودوا ويخبروا الملك بما رأوا وظلَّ سائرًا الى ان وصل الى قصر الرئيس الشيخ ابي القائد الذي حاربهُ وكان كفيف البصر فخرج لاستقباله الى باب قصره ورحَّب بهِ وادخلهُ الى القصر واولم لهُ ولرجاله وليمة فاخرة واعدَّ لهم منازل رحبة ينزلون فيها

وكتب كورتس الى ملك اسبانيا يشبهُ لهُ تلسكالا بغرناطة وقال انها اوسع منها واحصن واكثر سكانًا . والغالب ان كورتس بالغ في وصفهِ لان مباني غرناطة من اجمل مباني الدنيا ولا شيء في تلسكالا يقابل بها ولكن يظهر مما ذكرهُ بعض الكتَّاب الاسبانيين عرَضًا ان عمران تلك البلاد كان في درجة عالية فقد ذكروا دكاكين الخلاقين وحمامات البخار وحمامات الماء السخن ونظام الشرطة (البوليس) وذلك كلهُ لا يكون الاَّ في المدن الراقية درجة عالية من العمران

واراد رؤساء المدينة ان يمكِّنوا عرى الاتحاد بينهم وبين الاسبانيين بالزيجة فاشاروا على كورتس ورجالهِ ان يتزوَّجوا من بناتهم فابى كورتس الاَّ ان يتنصَّر السكان كلهم قبل ذلك واخذ يشرح لهم اصول الديانة المسيحية فقالوا لهُ لا شبهة عندنا ان الهكم اله قوي ونحن نود ان نكرمهُ مع الهتنا اما الهتنا فلا يسوغ لنا تركها بعد ان حمتنا السنين الطوال . واراد كورتس ان يستعمل العنف فنهاهُ الاب اوليدو عن ذلك لانهُ خاف العاقبة وقال لهُ لا تنع من نزع الاصنام من الهيا كل ما لم تنزع من القلوب اولاً . واخيرًا رضي كورتس ان يسمحوا لهُ بنصب الصليب في احد المعابد واقامة الخدمة الدينية فيهِ وتعميد الفتيات اللواتي اختارهنَّ زوجات لرجالهِ ومنهنَّ ابنة ذلك الرئيس الشيخ تزوج بها القائد الفرادو وسميت دونا لويزا وتزوج اولادها في اشرف عيال قشطالة وكان الفرادو من نخبة الفرسان واجملهم منظرًا ابيض الوجه اشقر الشعر فاحبهُ التلسكاليون ولقبوهُ بالشمس لجمال طلعتهِ

وبينما كان الاسبانيون في مدينة تلسكالا ارسل ملك المكسيك يدعوهم اليهِ وارسل اليهم هدية فاخرة من الذهب وتوسَّل اليهم ان لا يحالفوا التلسكاليين ولا يمروا في بلادهم بل يمروا في بلاد شلولا . واعترض اهالي تلسكالا على ذلك واوجسوا شرًّا ونصحوا لكورتس ان لا يأتمن متنزوما ولا اهل شلولا لانهم اهل غدر فابى ان يبدو عليهِ شيء من الخوف واصرَّ على المسير الى عاصمة المكسيك ماريًّا بمدينة شلولا